منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الزمان للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5360) السنة العشرون - الاربعاء (1) شباط 2023

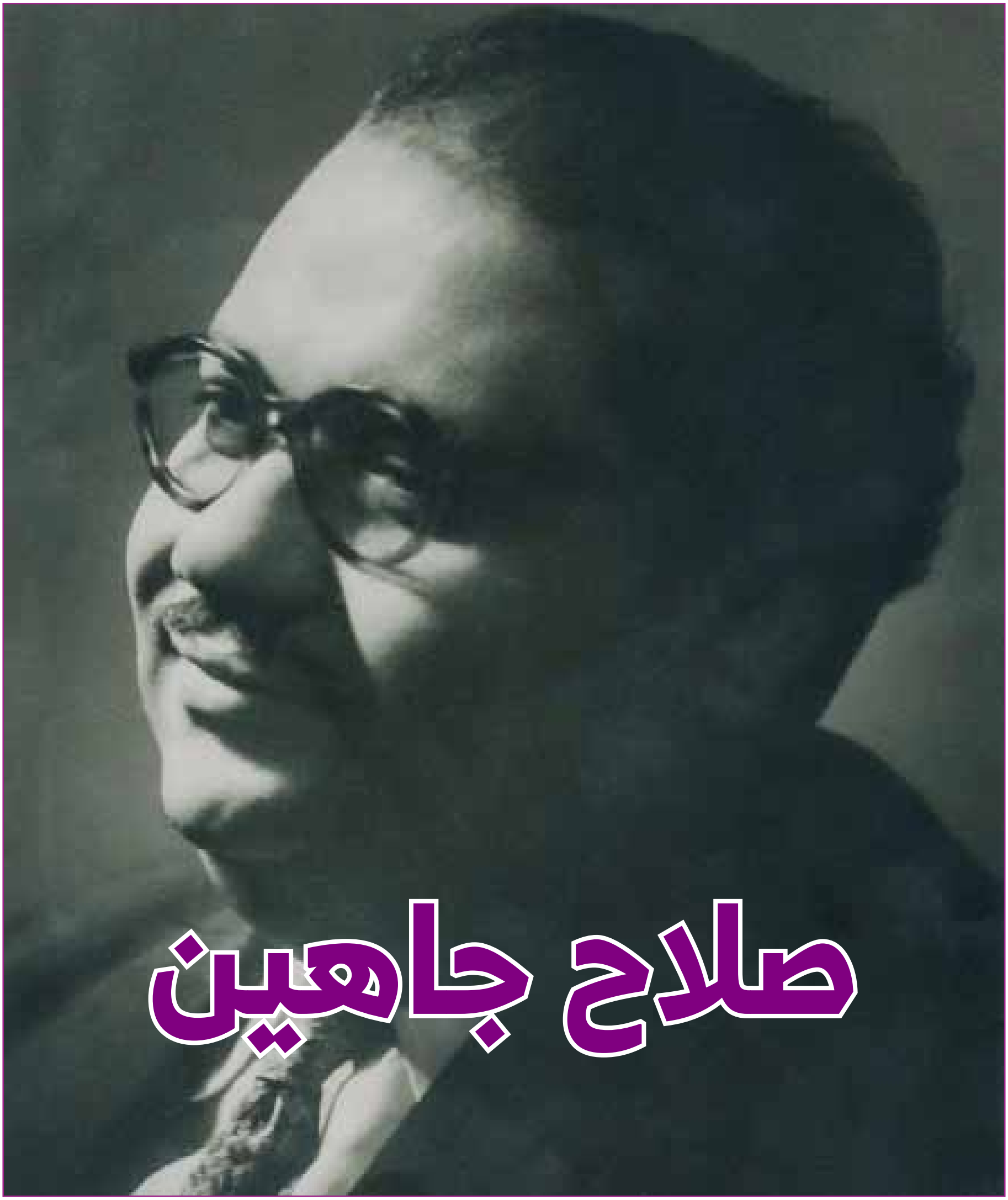

صلاح جاهين

عن رباعيات صلاح جاهين

د.جابر عصفور

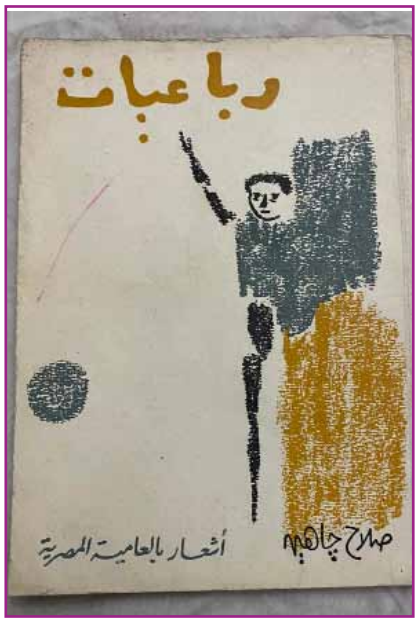

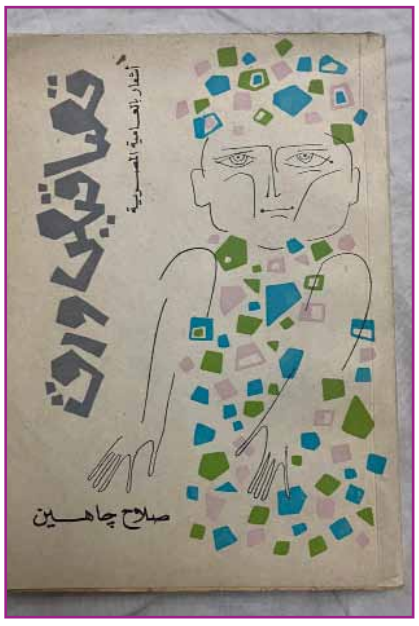

الرباعية قالب شعرى يرجع إلى أصول فارسية، أشهرها رباعيات عمر الخيام، وقد انتقل هذا القالب إلى الشعر العربى الحديث وأصبح فنًا من فنونه المحببة التى يُقبل عليها كثير من الشعراء الذين يرتبط شعرهم بالغناء أو محبة الحياة أو حتى التفلسف أو التأمل فى أحوال الكون، لكن تلك الرباعيات دائمًا ما ترجعنا إلى تأملات عمر الخيام فى رباعياته الشهيرة التى تبارى الشعراء العرب فى ترجمتها، ولعل أشهرها – فيما يعرفه الذوق المصري- ترجمة أحمد رامى التى غنت بعضها أم كلثوم فجعلتنا نهيم بها عشقًا. وأغلب الظن أن رباعيات الخيام هذه كانت تتردد أصداؤها فى بيت صلاح جاهين الطفل والفتى الذى سرعان ما شب ليصبح واحدًا من أعظم مبدعى قصيدة العامية المصرية. ولا غرابة والأمر كذلك فى أن يميل صلاح جاهين إلى قالب الرباعية، ويحاول استخدامه على نمط قصيدة العامية المصرية ليؤكد الحضور المتميز لهذا القالب الشعري؛ سواءً فى لغته التى تتوسط بين العامية والفصحى، أو فى صوره الشعرية التى تمضى مع الخيال فى كثافة آسرة أو فى تأملاته التى تصل ما بين السماء والأرض وتتجول بينهما متبصّرة حضور الكائنات المتحركة، فى مدى التأمل أو البصر الذى سرعان ما ينقلب إلى بصيرة؛ ولذلك أتوقف عند هذه الرباعية التى تحمل من معانى التأمل الكثير، فتقول:

أحب اعيش ولو فى الغابات
أصحى كما ولدتنى أمى وابات
طائر.. حيوان.. حشرة.. بشر.. بس اعيش
محلى الحياة.. حتى فى هيئة نبات
عجبي!!

والتأمل هنا ينصبُّ على رغبة الحياة التى هى فى الأصل غريزة البقاء التى تربط الكائنات فى هذا الكون؛ فالكون كله ينطوى على هذه الرغبة فى البقاء، ولذلك يؤثر الحياة على الموت، كما يغنى للحياة دائما فى تجددها وعرامتها. وليس المهم هو شكل الحياة، فالأهم هو حضورها فى الكائنات حتى ولو فى شكل طائر أو حيوان أو حشرة أو بشر؛ فالمهم هو أن يبقى مبدأ الحياة مندفعًا كالنسج الذى يتدفق فى النبات، فيجعل منه صورة أخرى من الإنسان الذى يتدفق فى شرايينه الدم، فيفرح بمعنى الحضور فى الوجود أو الحضور فى الحياة. ولذلك يأتى السطر الأخير من الرباعية بصرخة الحياة فى فرحة اندفاعها وصرخة انبثاقها، فالمهم هو مبدأ الحياة نفسها سواءً فى الحيوان أو النبات أو الإنسان. هل هذا هو السبب الذى يجعل هذه الرباعية كأنها نوع من التناص مع الأغنية التى كان يغنيها محمد عبدالوهاب ويحبها جيل صلاح جاهين؟ أعنى الأغنية التى تقول:

«يا دنيا يا غرامي.. يا دمعى يا ابتسامي
مهما كانت آلامي.. قلبى يحبك يا دنيا»!

فالوجود الإنسانى فى الدنيا هو الحضور الكائن فى الحياة، تستوى فى فرحة هذا الحضور والوعى به كل الكائنات على اختلاف أنواعها؛ نباتًا أو حيوانًا أو إنسانًا، فالمهم هو هذا الشعور الغامر بأننا نحيى على الأرض لا تحتها، وأننا ننتج ونزرع ونحصد ونبنى ونُعمر الأرض كى تصبح أبهى وأجمل بالحضارات والإنجازات البشرية التى تجعل من الحياة حياة جديرة بأن تعاش. ويتأكد هذا المعنى عندما تأتى المقطوعة المقاربة فى الدلالة لتكمل المعني، واصفة الحياة نفسها بأن:

أحسن ما فيها العشق والمعشقهْ
وشويتين الضحك والتريقهْ
شفت الحياة.. لفيت.. لقيت الألذ
تغييرها.. وده يعنى التعب والشقا
عجبي!!

وتكمل الرباعية الثانية معنى الرباعية الأولى بأن تصلها بما يبدو مضادًا لها فى الظاهر مكملًا لها فى الباطن؛ فأجمل ما فى الحياة ما تنطوى عليه من حب متبادل يتخذ شكل «العشق والمعشقة»، وهما صفتان لا تكتملان إلا بألذ ما فى الحياة، وهو المفارقة التى تنطوى على النقيضين، فألذ ما فى الحياة تغييرها إلى الأحسن والأكمل. وفى هذا المدى يمضى الإنسان حاملًا قَدَره، كما لو كان مكتوبًا عليه أن يصل بنفسه وما حوله إلى الأحسن والأكمل والأجمل. ولكن هذه الغايات لا تتحقق بسهولة، وإلا كانت مبذولة على قارعة الطريق يدركها كل عابر سبيل، فهى صفات تعنى الكمال، ولأنها كذلك فهى لا تتحقق إلا بالتعب والشقاء، ومن هنا تكمن المفارقة، فألذ ما فى الحياة التى هى فى حد ذاتها متعة، هو نقيضها الذى يعنى التعب والمشقة، فلا راحة إلا بعد تعب، ولا سعادة إلا بعد شقاء؛ تمامًا كالحياة نفسها التى هى وتر مشدود ما بين الوجود والعدم أو الحضور والغياب، فأن تحيا يعنى أن توجد، وأن توجد يعنى أن تتغير وتغير ما حولك، ولن تغير أو تتغير إلا بتعب ومشقة، وتلك هى مفارقة الحياة أو لذتها على السواء.

هذه هى المفارقة التى ينطوى عليها معنى الوجود كالتضاد الذى لا يخلو من معنى الحضور، وكلاهما ظاهر فى هذه الرباعية:

أعرف عيون هيّ الجمال والحسنْ
واعرف عيون تاخد القلوب بالحضنْ
وعيون مخيفة وقاسية.. وعيون كتير
وباحس فيهم كلهم بالحزنْ
عجبي!!

والتركيز على العيون – فى هذا السياق- مبرّر؛ لأنها نوافذ الأرواح والقلوب، وهى التى تكشف عما فى الباطن، ولذلك تتنوع بتنوع نفوس أصحابها واختلاف قلوبهم، ولذلك فهناك عيون مخيفة وثانية قاسية وثالثة شرسة، لكنها جميعًا عيون تنطوى على الحزن. ولكن لماذا الحزن رغم البدء بالجمال والحسن، ورغم أن هناك عيونًا تأخذ القلوب بالأحضان، حتى رغم وجود العيون المخيفة القاسية الوحشية؟ السبب هو هاجس الموت، وهو الحقيقة الوحيدة المؤكدة التى ينكرها كل أصحاب العيون مع أنه النهاية الطبيعية لكل خطى أجسامهم فى هذا الوجود.

وعندما يملُ صلاح جاهين من دنيا البشر واستبداد المستبدين، وخذلان البشر للفنان الذى ينطوى عليه، يرتفع عن عالمهم كى يتأمل الكون من أعلي، وحياة الإنسان من بعيد؛ فيقول:

أنا كنت شيء.. واصبحت شيء.. ثم شيء
شوف ربنا.. قادر على كل شيء
هزّ الشجر شواشيه ووشوشني؛ قال:
لا بد ما يموت شيء.. عشان يحيى شيء
عجبي!!

وهى رباعية متعددة الدلالات؛ لعل أولى تلك الدلالات وأكثرها محورية أن الحياة دورة أبدية؛ موت ثم بعث ثم موت ثم بعث وهكذا إلى ما لا نهاية، أو أن الحياة كالساقية ترفع ما تخفض وتخفض ما ترفع، أو أن الحياة – كما قال شكسبير- مسرح كبير يتغير فيه الممثلون بتغير فصول العرض أو مناظره ليعاود الزمن فعل تمثيل المسرحية نفسها بواسطة ممثلين آخرين.. إلى ما لا نهاية. والمؤكد أن الدلالة الثانية تشير إلى أن الوجود لا يتحقق إلا بالعدم؛ فلولا العدم ما كان الوجود ولولا الموت ما كانت الحياة. وهو ما نراه فى الطبيعة نفسها؛ حيث الشجر الذى تصفرّ غصونه وتجف أوراقه، فتتساقط فى الخريف لكى تعود الأوراق والأغصان مخضرّة مزهرة فى الربيع، لكن بما يعنى أن كل ربيع لا يأتى إلا بعد كل شتاء، وأن كل حياة لا تأتى إلا بعد كل موت؛ فهذا هو قانون الوجود، حياة وموت ثم حياة وموت إلى ما لا نهاية كدورة الوجود والعدم أو كدورة الفصول. وهذا معنى قد يصيب المنتهى إليه بنوع من الاستهانة بالإنسان، فنقرأ:

إنسان.. أيا إنسان ما أجهلكْ
ما أتفهك فى الكون.. وما أضألكْ
شمس وقمر وسدوم وملايين نجوم
وفاكرها يا موهوم مخلوقه لكْ!
عجبي!!

وهى رباعية تؤكد ضآلة الإنسان بالقياس إلى كائنات هذا الكون اللانهائية، والرباعية فى مجملها – خصوصًا تجاوب دلالاتها- تشبه الدلالة العامة التى كانت تتحرك فيها قصيدة لصلاح عبدالصبور بعنوان «الشمس والمرأة». ففى هذه القصيدة يخبرنا صلاح عبدالصبور أن عمر الإنسان أصغر من الذرة بالقياس إلى عمر الكائنات التى تحيط به من أشجار أو جبال أو تلال، فالإنسان أصغر كائنات الكون وأقلها فى حجم أو دوام الوجود، لكن هذا الإنسان يمكن من وجهة نظر أخرى أن يكون هو سيد هذا الوجود والكون لو تسامى على

طينيّتـه ولم يسِرْ سيرته التى تجعـل منه أضل وأضأل ما فى الوجود.

هذا الـذى يجعل الإنسان أضل وأضأل ما فى الوجود هو تمسكـه بالمظاهـر الخادعة وعـدم احترامـه للآخرين ولا حتـى التسليم باختلاف حياتهم عن حياته أو حتى بحقهم فـى أن يكـون لهم حيـاة مختلفة، حتى ولـو كانت خارجة على مقاييسه الأخلاقية المعروفة؛ ولذلك تقدم لنا رباعيته التالية أمثولة دالة:

حدوته عن جعران.. وعن خنفســـه
اتقابلوا حبوا بعض ساعة مســـــا
ولا قال لهم حد: اختشوا.. عيب.. حــرام
ولا حد قال دى علاقة متْدَنِّســـــه
عجبي!!

والمعنـى الأليجـورى أو التمثيـل الكنائـى فـى الرباعية أوضـح من أن نشير إليه، لكن الأهـم فيها هو أن يفعل كل إنسـانٍ ما يريد فى هذه الدنيـا دون أن يفرض عليه غيره سلـوكًا بعينه أو قيمًـا أخلاقية دون غيرهـا. فالحياة هى الحريـة، والحريـة هـى سر الوجـود. أما الفـن فوظيفته تحريـر الإنسان من مشاعر الضرورة أو القهر أو الخوف على نحو ما نقرأ فى هذه الرباعية:

سهّير ليالي.. وياما لفيت وطفت
وفـليله راجع فى الضلام.. قمت شفت
الخـوف.. كأنـه كلب سد الطريق
وكنت عايز أقتلـه.. بس خفت!
عجبي!!

واللافـت للانتبـاه عبـارة الذى لا ينـام الليـالى والذى لا يكـف عن الطواف؛ فهى عبارة دالة على البحث عن المعنى والدلالـة فى الكـون، وربما كانت الدلالـة البارزة هنا هى الخـوف الذى لا يفـارق العنصـر الإنسـاني؛ لأنه عنصر ينطـوى على الضعـف، ولذلك يسعى الإنسـان للانتصار علـى الخـوف، وهذا هـو مـا ينبغـى أن يقوم بـه، ولكنه للأسـف لا ينجح فى ذلك؛ إذ سرعان ما يخاف من الخوف نفسه. وهكذا يأتى إلى الرباعية البهيجة التى تقول:

غمّض عينيك وارقص بخفة ودلع
الدنيا هى الشابه.. وانت الـــجدع
تشوف رشاقة خطوتك.. تعبـــدك
لكن انت لو بصيت لرجليك.. تقع
عجبي!!

وهى مقطوعة قريبة مـن نفسي، ومكمن روعتها إغراؤها إيانـا بضـرورة التركيـز علـى أداء الفعـل نفسـه وعـدم الاكتـراث بالآخرين، أو عـدم مراقبة ذواتنا بعيون أولئك الآخريـن؛ فالاستغـراق فـى الأداء الجميـل الـذى ينعش الحيـاة ويثريهـا سيتحـول إلى كارثـة يقينيـة عاجلة لو راقـب الإنسـان نفسـه لحظـة واحـدة، وهو مـا يمكننى تمثيلـه بلاعـب السيـرك أو راقصـة الباليه، حـين يخرج الجمهور عن حدود المسرح الضيقة، لتصبح الدنيا نفسها - بتعبيـر الحكيـم- مسرحًا كبيـرًا؛ فهـذان أنموذجان لا يمكن دفعهما عـن مخيلتنا ونحن نقرأ هذه الرباعية، على نحو يشى بإلحاحهما القوى على مخيلة الشاعر من قبلنا، وكأنّـه يومئ إليهما مـن بعيد جدًا إيمـاءة شفيفة جدًا، لا سيمـا حين نستحضـر - فى مطلع الرباعيـة- تلك البهجة العارمـة التـى تُشعّها فى نفوسنـا رشاقة راقصـة الباليه وتمردهـا علـى قوانـين الجاذبيـة الأرضيـة أو حتى ذلك الانبهـار الـذى تثيره فينا مهـارة لاعب السيـرك وحذقه، ثـم نستدعـى - فى ختامهـا- صيرورة تلـك البهجة وذاك الانبهـار إلى حسـرة مريـرة وألم فاجع؛ إثر مـا قد تلقاه راقصـة الباليـه أو لاعـب السيرك مـن مأساويـة المصير إن همـا تأملا نفسيهما طرفـة عين، وزلّت بـأيّ منهما إلى الحضيض قدمه، فـ«هوى وغطى الأرض أشلاء»! بتعبير حجازي. وبهذا المعنـى فالأنموذجان كلاهما كاشف بقوة عـن حقيقة مؤداها أنه ليس سـوى ديمومة الفعل والأداء الخـلاق من سبيـل لرقى الإنسان إلى كماله، غـير معنيّ بشيء عدا الوصـول إلى الغاية القصوى من هذا الكمال، وإلا سقط سقطة تراجيدية!

هـذه التأمـلات تصل بين قصيـدة العاميـة والتفلسف أو تجعـل مـن قصيدة العاميـة المصرية نوعًا مـن التفلسف، فتدفعنـا إلى التساؤل: هل كان صـلاح جاهين فيما أبدعه مـن رباعيات متأثـرًا بالخيام فـى رباعياتـه التأملية كما لـو كان يريـد أن يفعـل مثلها فـى رباعياتـه العامية؟ هذا أمر محتمـل خصوصًا أن صلاح جاهـين عندما كتب هذه الرباعيـات كان يعمل فـى مجلة «صباح الخـير» القديمة، ويجلـس فـى غرفـة واحدة مـع صديقـه الحميـم صلاح عبدالصبور ذى النزعـة الميتافيزيقية المعروفة، وصاحب الـدور الأبرز فـى التحول بقصيـدة الفصحـى المعاصرة إلى التأمليـة. فالعلاقـة بين قصيـدة التفعيلـة والفكر فى شعـر صـلاح عبدالصبـور هى الوجـه الآخر مـن العلاقة بـين الرباعيـة والفكـر فـى شعر صـلاح جاهـين. وظنى أن هـذه العلاقـة هى التـى ميزت شعر صـلاح جاهين عن غـيره، وجعلت له إيقاعًا خاصًا، وخوّلت له مكانة متميزة بـين شعراء قصيـدة العامية؛ سواء الذيـن عاصروه مثل فـؤاد حـداد أو الذيـن تتلمـذوا عليه مثل سيـد حجاب أو الأبنودي.

وطبيعـى أن يختـار صـلاح جاهـين لتأملاتـه الفلسفيـة قالـب الرباعيـة الـذى سبق أن اختـاره الخيام مـن قبله، فهى بأشطرهـا الأربعة بناء مدينى يشبـه جدران الغرف الرباعيـة، بخـلاف الشكل الثلاثـى للخيمـة البدوية فى الصحـراء؛ ولذلـك يحمل كل شطـر من الرباعيـة القافية نفسهـا، فيما عدا الشطر الثالـث الذى يأتى بقافية مغايرة تخرجنـا من رتابة التوقـع لتعيدنا إليه ثانيـة مع القافية الختامية التى تأتى بمـا يشبه خاتمة العقد أو بالخلاصة المكثفة للدلالة الكلية.

والحـق أننى عندما أكتب عن الرباعيات لا أستطيع سوى أن أسترجـع ذكريات صباى البعيد حـين كنت أقرؤها كل أسبـوع فى «صبـاح الخير»، فأقف عندها كثـيرًا وأحاول أن أتأملهـا دون أن أفهـم عمـق معناها، وظللـت أتنقل من حـال إلى حـال إلى أن قرأت دراسـة للمرحوم يحيى حقى أفهمتنـى ما استغلق عليّ من معانـى الرباعيات ودلالاتها فأصبحت أثـيرة إلى نفسى أتابعها غنـاءً على لسان سيد مـكاوى أو علـى الحجـار، وأتابعها إنشـادًا بصوت بهاء جاهين الذى يذكرنى بأبيـه، فأشعر بالفرح والبهجة التى تعيدنـى إلى صبـاي. ولا أنسى قط هـذه الرباعية بوجه خاص سواء من حيث الدلالة أو مـن حيث الإيقاع، أعنى الرباعية التى تقول:

أنا اللى بالأمر المحال اغتـــوي
شفت القمر.. نطّيت لفوق فى الهـوا
طلته.. ما طلتوش.. إيه انا يهمنـــي
وليه.. ما دام بالنشوة قلبى ارتوي!!

هـذه الرباعيـة كتبتهـا فى ورقـة صغـيرة ووضعتها على مكتبـى لكى أراها فى كل وقت أجلـس فيه إلى المكتب، ولا أريـد أن أحللهـا نقديًـا، لكن يكفـى أن أتحدث عـن المعنى الجميـل الذى تبعثـه دائمًا فى نفسي، أقصـد المعنى الذى يؤكد فـى داخلى أن الإنسان لا ينبغـى أن يتوقف أبدًا عن المحاولة، ولا عن الانطلاق لتحقيق كل ما يحلم به ويتمناه لنفسـه وللآخريـن فى الحيـاة. فالحياة التـى نحياها هى مجموعـة من الأحـلام التيِ ينبغى أن نحققهـا، وأن نندفع إلى تجسيدها وجودًا كاملًا، وألا نتوقف عن المحاولة مهما كانـت الإحباطات أو العقبات وأيًـا كانت النتائج، حتى لو لم ننجـح فى تحقيق هذه المحـاولات. إن المعنى هنا يشبه المعنى الـذى تنطوى عليه «أسطـورة سيزيف»؛ فسيزيف اليونانـى قد حكمت عليه الآلهـة بالعقاب لأنه أفشى بعض أسرارهـا، وأمرته بأن يظل يحمل صخرة كبيرة من أسفل الجبـل إلى قمتـه حتـى إذا وصلـت الصخـرة إلى القمـة انحـدرت مرة أخـرى إلى السفح، وما علـى سيزيف إلا أن يهبط إلى السفح لكى يُعيد الصخرة مرة أخرى إلى القمة.. وهكذا دواليـك دون توقف. وقد كان سيزيف يعرف عبثية هذا الفعـل، ولكنه أدرك أنه بإصـراره على ممارسة الفعل نفسـه سوف يمنح مـا يفعله معنى ومغـزي، وأنه بمجرد أن يمنـح الفعل المعنـى والمغزي، يحقق حضـوره الذاتِى ويضفى على العبث المعنى الذى ينفى عنه عبثيته، ومن ثم فإن جهـده العبثى يتحـول إلى جهد غير عبثي. أعنى جهدًا يحقـق قدرة الإنسان على المقاومـة وعلى الإصرار على ما يريـد؛ ومن ثَم يمكننا أن نتخيل شكل سيزيف وهو يسخر من هذه الآلهة فى كل مرة يصعد بالصخرة لكى يرفعها إلى الأعلى بعد سقوطها من قمة الجبل، كما لو كان يؤكد لها أن إرادتـه الذاتية تتجلى فى قدرتـه على المقاومة، وأن قدرته على المقاومة تحيل اللامعقول، واللا معنى إلى معني.

هـذا ما أشعـر به إزاء رباعية صـلاح جاهين؛ فهى تتحدث عـن الإنسـان الـذى يخايله الأمـر المحال؛ أى غـير القابل للتحقـق، فيغتوى به، ولذلـك عندما يرى القمـر يقفز إليه متجهًـا صوبه كمـا لو كان يسعـى إلى الوصـول إليه، مع أنـه يعرف استحالة ذلك؛ لأنه لن يصـل إلى القمر بقدرٍاته الذاتية وحدها، فإنه فى كل مرة يقفز فى الهواء محاولًا أن يلمـس القمر، معتقـدًا أن شرف المحاولـة وحده هو الأهم من الوصول، حتـى لو كان هذا الوصول إلى القمر نفسه؛ ولذلـك يأتـى الشطر الذى يؤكـد أنه ليس مـن الضرورى أن تطـول يـد الإنسان القمـرَ أو لا تطولـه، فليس هذا هو المهم، بـل المهم هو المحاولـة التى تسبـب لصاحبها نشوة الإحساس بالوجود، وكمال التحقق الإنسانى الذى يعطى - حتى للعبث- معنى ومغزى وقيمة.

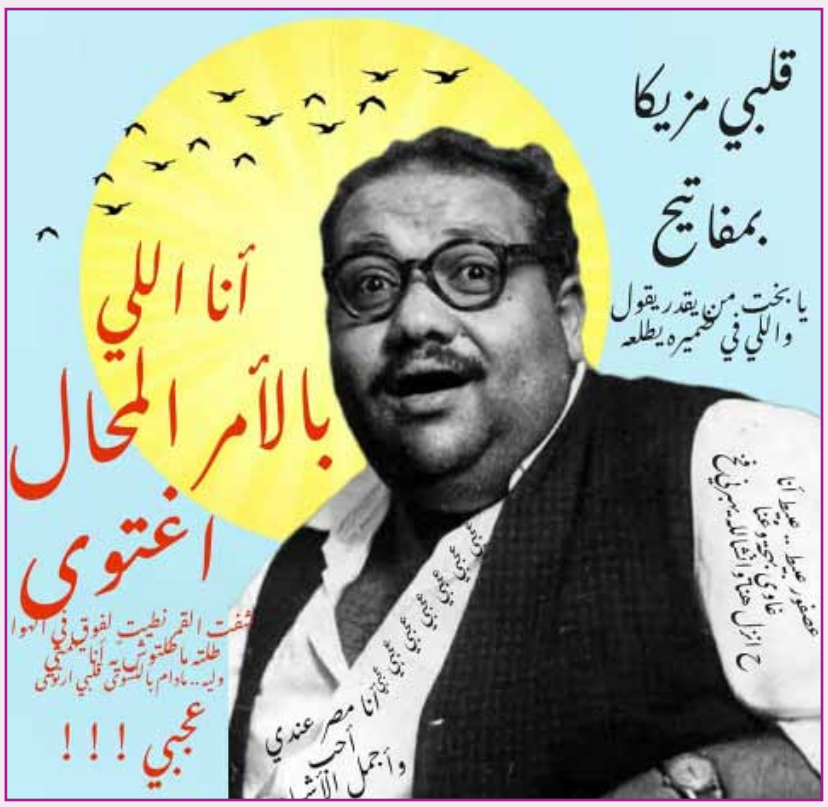

عن صحيفة الاهرام ٢٠١٧

رباعيات جاهين

عبدالإله عبدالقادر

في البدايـة لا بـد من الاعتراف أن مظفر النـواب وصلاح جاهين هما أهم شاعرين نقـلا الشعر المحكي إلى مصـاف الشعر الفصيح، بل طورا في القصيدة المحكيـة وأحدثا ثورة ما زال معظم الشعراء الذين يكتبون باللهجة المحكية يعتبرون هذين الشاعرين القدوة.

كلاهمـا طـورا في اللهجـة، والأسلوب، والشـكل، والمضمون، وكانـا مؤثرين في الحياة العامـة، سياسية واجتماعية وفكرية وفلسفية، وكلاهما ثائران على أساليب السلطة مثلما ثارا على أساليب الشعر وقوافيه.

وإذا كنـا قـد خصصنـا في وقت سابـق زاوية عن مظفر النـواب فإنني أجد أن صلاح جاهـين في رباعياته قـد حقـق مـا لمٍ يحققه شاعر آخـر، ولعلنا في المقارنـة مع رباعيات الخيـام، ننحاز إلى جاهـين وهو الذي عرفنـاه مبدعـاً في الشعر الفصيح، يجمع مـا بين عمق اللوحة الكاريكاتيريـة، وقصيدته الساخرة المؤثرة التـي قـد تكون أحيانـاً صورة كاريكاتيريـة.. إن جاهين كان فيلسـوف عصره، وحكيم زمانـه، وثائر على طريقتـه الخاصة، رسم ضمائر الشعب العربي وهمومـه وأحلامه وأمانيه وكتب ما لم نستطع أن نكتبه أو يقوله غيره عن السلطة التي عاصرها وانتقدها

أنا كل يوم اسمع فلان عذبوه
أسرح في بغداد والجزائر واتوه
وما اعجبش م اللي يطيق بجسمه العذاب
وأعجب من اللي يطيق بعذاب أخوه
عجبي!!

كان يرسمنا جميعاً بريشته، ويتحدث بلساننا كل يوم، ومثل سيزيف يتحمل عبئ الصخرة لوحده.

لوكان في سلام في الأرض وطمأنة وأمن
لو كان مفيش لا فقر ولا خوف ولا جبن
لو يملك الإنسان مصير كل شيء
أنا كنت أجيب للدنيا ميت ألف ابن
وعجبي!!

في رباعيـات جاهـين نجد أهدافاً وطروحات أوسع وأعمق بكثير ممـا طرحه الخيام في رباعياته، فجاهين كتـب تاريـخ عصره من خلال هـذه الرباعيات ووضع فيهـا فلسفته الحياتية ومواقفـه السياسية، وتعرية للانتهازيـين، وموقفـه مـن الخـوف، وطرح عواطفـه وأحاسيسـه وحنينه وحبـه، بل حاول رسـم المدينة الفاضلة التي كان يصبو لها جاهين:

عجبتني كلمة من كلام الورق
النور شرق من حروفها وبرق
حبيت اشيلها فـ قلبي قالت حرام
دانا كل قلب دخلت فيه احترق
عجبي!!

لم يحقـق جاهين كل مشروعه الحياتـي الإبداعي، فقد رهن نفسه للناس الذيـن عشقوه، بل حتى خصومه كانوا يحبونه، رحل وما زال في فكره وقلمه وريشته خزين لم يتفجر على الرغم من كل ما قدمهِ من إبداعٍ، كان يعتـبر نفسـه عابر سبيـل في هذه الحياة التي تركهـا في ٢١ أبريل عام ١٩٨٦، مخلفاً أرثـاً إبداعياً قد يستغرق الباحثون سنين قبل أن يكتشفوا كل كنوز الإبداع عند صلاح جاهين.

صلاح جاهين: أسد يرقص باليه

وائل عبد الفتاح

أحيانًا أعتبر كل ما كتبته مُسوَّدة لكتابة مؤجلة، ومنها هذه الكتابة عن صلاح جاهين. لا أعرف على وجه الدقة لماذا اخترت وصف "المتمرد" لأضعه في العنوان على غلاف "أخبار الأدب".

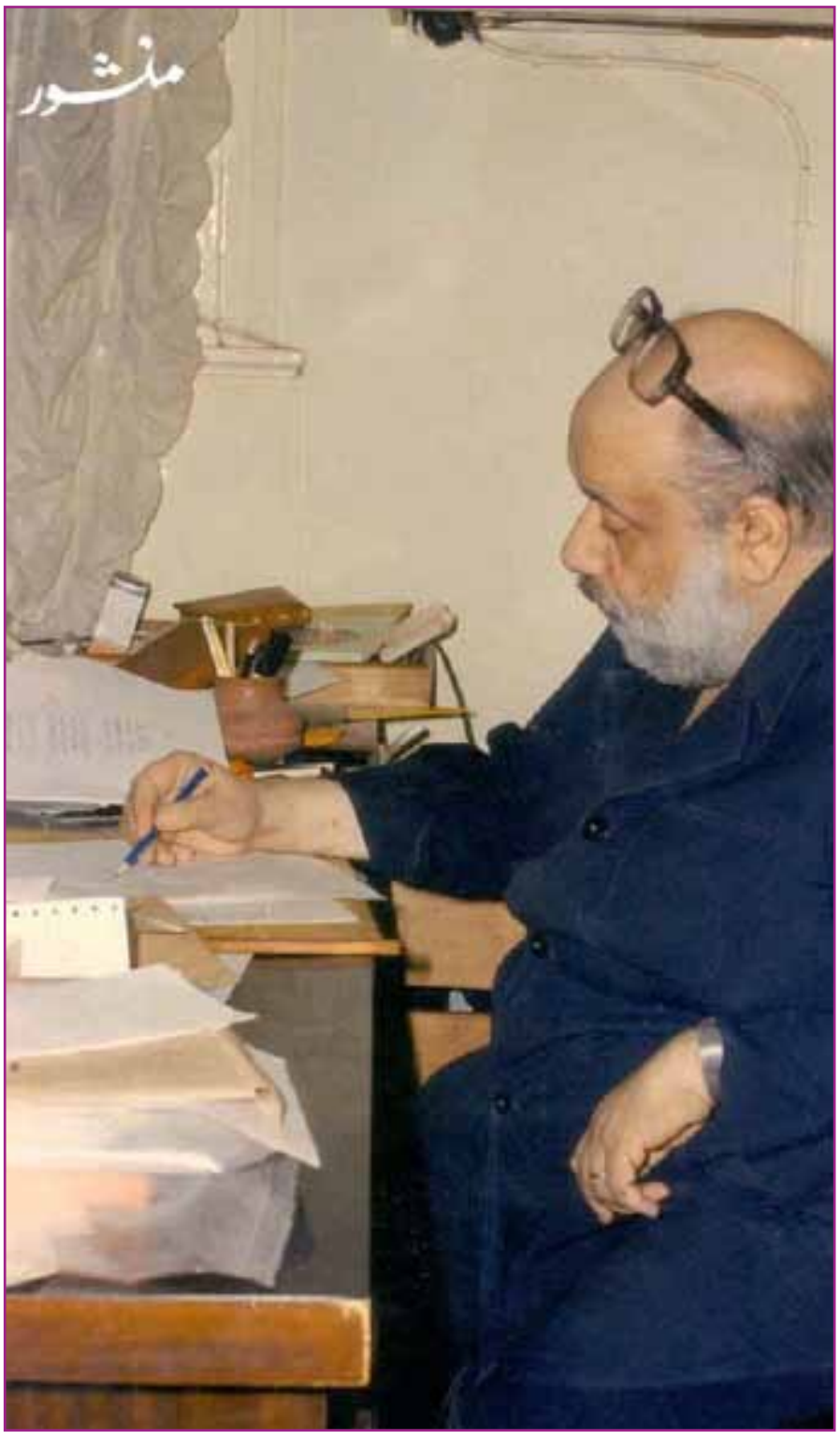

هل كان تحديًا لصورته التي حيرت الكثيرين عندما كان عمودًا راسخًا في مثلث "العندليبية" الناصرية، مع عبد الحليم حافظ وكمال الطويل؟ أم أنه بعض أصداء حيرة داخلية عن فكرة التمرد بعد أن كنت وقتها في قلب مرحلة من التمرد على أحلام العائلة، واختيار طريق سرتُ فيه منفردًا ضد كل القوانين الجاذبية الاجتماعية؟

عندما نشرتُ رسائل صلاح جاهين إلى أمه في السنة الأخيرة من الألفية الثانية؛ كنت قد أصبحت أبًا وزوجًا بكامل أوصاف "الرجل ذي المسؤوليات المحدودة"؛ وهي ضمان الاستقرار في منظومة الأمان التي تشفط غالبًا كل طاقات التمرد. لكنني كنت محظوظًا، فلم يذهب كل القلق تحت رماد الأمان، وبقي من التمرد سؤال في الوعي، لا مجرد طاقة تستنفذ مع تقدم العمر. كما أن دخولي في تجربة "السلطة الأبوية" تجاوز مجال غريزة مراهق في "قتل الأب" إلى تتبع ألعابنا مع التناقضات الأليفة والغامضة.

كنت أبحث عند صلاح جاهين في فن إدارة التناقض بين التمرد على الأب البيولوجي، والوقوع في غرام الأب السياسي، والغناء له، وهو فن جعل صلاح جاهين في منطقة خاصة به وحده، وفشلت معها كل محاولات استنساخه في العصور التالية.

ربما لأن صلاح جاهين، بكل ما فيه، جاء في موعده مع الزمن، حيث الستينيات الاستثنائية، والرغبة العالمية في التغيير، والرغبة العمومية في إعادة بناء العالم؛ وكسر منظومات القيم والأخلاق والذوق؛ كل شيء كان يتغير، الدول الخارجة من الاستعمار تطلب الصعود والتقدم والندية مع مستعمريها القدامى، الشباب يرفضون حكم العواجيز الذين قادوهم لمأساة الحرب العالمية الثانية؛ كانت طاقة تكسر كل تقليدي وتسرع تجاه جنون رومانتيكي؛ من موسيقى ورسم وشعر إلى علاقات الحب وخيالات التقدم السياسي الرومانتيكي التي كانت تحاول أن تحكم العالم كله.. وأبطالها مثل جيفارا يتجاوزون الحدود والجغرافيا، وقد صلتنا هنا في مصر نسخة من تلك الرومانتيكية، لكنها كانت مصحوبة بتاتشات القومية وسيطرة الأب العسكري العادل، الذي يجمع بين القسوة والحنان، الواحد الذي يختصر الكل..

وهي "العندليبية" التي حكمت تلك المرحلة المعقدة في حياتنا، وفيها صعد المتمرد على عائلته صلاح جاهين ليغني اللحن الحنون.. تاركا القسوة لرباعيات الشعر.. تفلسف آهاته، فيما يراعي "ظروف المرحلة"..

هذه العندليبية، أو فرض الانسجام الرومانتيكي بقوة أحلام أب الدولة، مرحلة في حياة الشعوب لا يمكن استنساخها، وقد بقي عبد الحليم عندليب الناصرية، وبقيت أغانيه صالحة للاستخدام، بينما اختفى على سبيل المثال محمد ثروت؛ عندليب مرحلة مبارك بأغانيه الفاترة ورومانتيكيته الباهتة.

العندليبية" في زهوتها ربما تبقي في مخزن العواطف، تكتشفها في لحظات كأنها سر قديم لا تطلع عليه أحدًا، أو اعترافات تكتشف أنه لا يمكن اختصار التجارب والوعي، أو اختزالها، أو إلغاء مرحلة بعد عبورها.. لأن التراكم يتيح تسرب الرومانتيكا القديمة رغم تجاوزها، وهذا طبعًا غير بقاء العندليبية خارج سياقها/زمنها لتعيد إنتاج عندليب جديد دون زمانه.

فشلت كل محاولات استنساخ صلاح جاهين، الذي ظل يلعب في الثقوب التي صنعها بين الخفة والثقل.. المرح والاكتئاب.. لينحت نفسه بعد كل التجارب، ويصبح المتمرد حكيمًا.

أشعر بالملل دائمًا، أو بمعنى أدق لا أتحمل الأشكال الضيقة والأنماط والقواعد؛ وفي هذا ميزة وعيب.. أستمتع، وأتعذب بهما راضيًا. ولهذا عندما طلب الأستاذ جمال الغيطاني خطة لتطوير أخبار الأدب، وكنت في مرحلة بين الضيف الجديد والمقيم، اقترحت تصورًا؛ وكان أهم وأخطر جزء فيه هو "البستان"؛ وهي الصفحات التي تتوسط الجورنال، ويعتبرها جمال الغيطاني حديقته التي ينشر فيها نصوصًا من التراث.. كان اقتراحي تطويرها بالكامل لتكون موضعًا دائمًا للكتابة التي لا يمكن تصنيفها.. ويكون حجمها متغيرًا (أربع صفحات ومضاعفاتها).

كان بقية زملائي الأكثر خبرة مني في المؤسسة، وفي الأستاذ جمال الغيطاني، شبه متأكدين أنه سيرفض الاستغناء عن حديقته.. لكنني كنت على عكسهم تمامًا؛ وخرجت صفحات البستان بتعريفها الجديد "صور وأطياف من الثقافة الحرة". وكان البستان الأول عن رسائل صلاح جاهين لأمه، وتتالت البساتين عن جيفارا ونهر النيل (كتابة صنع الله إبراهيم) ومارلين مونرو، وغيرها..

هذه تحية لجمال الغيطاني الذي طلب بعد فترة أن تكون مختاراته التراثية مرة في الشهر.. وتحية لصلاح جاهين الذي صاحبني في كسر مللي. وتمنياتي بدمار شامل لكل ما يميتنا ونحن أحياء.

سأله المذيع الشهير طاهر أبو زيد "عملت كل حاجة.. لكن نفسك تعمل إيه لسه؟!" أجابه صلاح جاهين بسرعة لافتة "نفسي أرقص باليه!".

ارتفعت ضحكات الجميع في الاستوديو إلا صلاح جاهين! لم يكن صلاح جاهين يطلق دعابة من وجهة نظره لكنه ربما يتحدث عن شعور داخلي بخفة الروح يدفعه إلى الطيران. وهو بالفعل كان يحاول التحرر من وزنه الضخم والتعامل مع العالم بإحساس فراشة! وهذه ليست مفارقة أدبية كما أن وصف إحسان عبد القدوس له بالأسد ليس نوعًا من المحاكاة الساخرة، إحسان كتب بمناسبة عيد ميلاد "صباح الخير" (١٤ يناير ١٩٦٠): "كلنا في صباح الخير وحوش.. أو على الأقل في صدر كل منا وحش اسمه الفن".

وصلاح جاهين بين الوحوش هو أسد صباح الخير.. "وهو أسد تنتابه حالات نفسية عجيبة.. فيوأوأ.. واء.. واء.. ويجلس على الأرض ويرفس بقدميه ويشوح بيديه: أنا مالي هيه..

– عيب يا أسد ما يصحش

– موش عاجبكم طيب!

ويزأر الأسد ويستمر في الزئير.. وبعد ذلك ربنا يستر!".

أسد يرقص باليه! صورة مثيرة لكنها ليست صلاح جاهين بالضبط هي الجانب المتمرد الذي تعود على تكسير القواعد المنطقية وتحطيم الصور الجاهزة عنه. يمكنه أن يجلس على كرسي فخم وبكل اتزان أب محنك يغرقك بخبرته في الحياة ويلقي عليك خطب عصماء من نصائحه الذهبية، وقبل أن ينتهي بقليل يمكن أن يرقص معك أو يجعلك تقوده إلى مغامرة تدمر فيها كل ما قاله!

في حوار مع "المصور" (١١ مايو ١٩٨٤) يتحدث صلاح جاهين عن علاقته بأولاده: "أنا أقولك الحاجات السلبية؛ لأن الفنان يخلق الشيء يحس أن أولاده مخلوقاته وأنهم لازم يكونوا زي ما هو عايز.. بهاء ابني هرب راح أمريكا وجايز كان بيفكر بعقله ويقول أحسن أسيب له البلد وأطفش.. راح يدرس الإخراج السينمائي، لكن بفضل التقدم العلمي أتصل به تليفونيًا ولا أتركه لحاله بل اسأله عن أحواله وأعطيه تعليماتي أن ياخد باله من نفسه، وأكاد أسمعه يقول في سره هو أنت ورايا ورايا ما تخل عن أبداني.. كذلك أمينة ابنتي زوجة ابن الفنان فؤاد حداد تنتظر مولودها الأول، رغم أني طول الوقت أقول لها لا تنسى حبوب منع الحمل، كنت أتمنى أن تعمل، تسافر مع زوجها إلى بلد عربي وتعود بعد أن تكون نفسها اقتصاديًا وتغير سيارتها القديمة الصغيرة بواحدة جديد، تفرش شقتها وتلتحق بعمل مناسب لكن هذا تدخل مني في حياتها وطبعا لا بهاء ولا أمينة يريدان أن يكونا من مخلوقاتي".

تذكره الصحفية "من شابه أباه فما ظلم.. وأنت أيضًا يا صلاح رفضت أن تكون من مخلوقات والدك". يضحك صلاح ويقول لها: "ما هي دي السفالة، أنا رفضت أكون من مخلوقات أبويا، وعايزهم يكونوا من مخلوقاتي.. الحقيقة أنا صاحبهم جدًا لكن مش بدرجة أن أركب على نفسهم".

من هنا يمكن أن أبدأ حكاية الصور والرسائل التي ننشرها في "أخبار الأدب" والتي يجمعها خيط دقيق هو الحد الفاصل بين الفتى الوسيم الذي تنتظر أسرته أن يصعد بها خطوة في السلم الاجتماعي وبين الفنان الذي حفرت صراعاته من أجل أقصى حرية يلمسها بيديه ملامح وجهه وجسده الخارقة للعادة والصادمة للمقاييس الأليفة!

ننشر الصور والرسائل لنتأمل المسافة التي قطعها فتى كان يمكن أن يكون "دون جوان" في السينما، أو مديرًا ناجحًا في شركة محترمة، أو حتى قاضيًا لامعًا كما كان يريد أباه أن يستكمل –مثل كل الآباء– مشواره ليصبح تلك الكتلة البشرية الصاخبة التي تجمع الحنان والعصبية والجنون والحكمة والفن والحياة والغرور وكراهية النفس والثورية و"الدنشة" والمرح والاكتئاب في مساحة واحدة تكاد تنفجر بتناقضاتها اللذيذة.

هو هنا أيضًا أب يحمل ابنه على ظهره ويضم عائلته جميعًا أمام كاميرا المصور الجوال ليسجل ذكرى "المصيف" مثل أي عائلة من الطبقة الوسطى ترتب نفسها في صورة تشير إلى ميزة لم تحققها إلا بعد الثورة

صلاح جاهين.. اليومي والمتخيّل

حسن مدن

برأي ناقد كبير هو المرحوم رجاء النقّاش فإن الأدب العربي، قديمه وحديثه، ينقصه الخيال.

ثمة استثناءات محدودة تعدّ على أصابع اليد الواحدة أوردها النقّاش؛ بينها ما تخيّله أبو العلاء المعري في «رسالة الغفران»، التي تصوّر عالمي الجحيم والجنة، وابن طفيل في «حي بن يقظان» حيث تَصوّر إنسانا يعيش في جزيرة منعزلة يبحث عن المعنى وسر الوجود، وكذلك بعض قصص «ألف ليلة وليلة».

لم يأتِ رأي رجاء النقاش هذا في سياق دراسة عن الخيال في الأدب، إنما في سياق دراسة عن الشاعر صلاح جاهين استشهد بها الدكتور حسن يوسف طه في كتابه «جماليات الإبداع عند صلاح جاهين».

برأى النقاش أن جاهين يمكن أن يعدّ أحد الاستثناءات في غنى الخيال بتجربته الشعرية التي جسدّت، كما يقول، «حقول الشعر الفلكوري والأساطير والخزين الهائل من آيات ومعارف ورموز العالم القديم التي تتضافر بجرأة الخيال الشعري»، ويعطي مثالا على ذلك قصيدته «بكائية» التي تخيّل فيها السيد المسيح ينزل من الصليب وينام في مرج دمع، و«المجدلية تميل عليه وتنوح».

تظل رباعيات جاهين هي العمل الأشهر له، ورغم ما بدت عليه من استغراق في اليومي والبسيط والعادي، إلا أنها ترتقي إلى مقام الفن الذي يعيش. ربما لأنها كانت، إذا ما استعرنا تعبير الدكتور حسن يوسف طه، «حياة جاهين في كل لحظاته وخلاصة رؤيته وتأملاته».

صدرت الرباعيات كاملة في عام ١٩٦٣، ولكنها قبل ذلك نشرت يومياً، في حقبة ثرية من تاريخ مصر كانت مليئة بالطموحات التي تجسدت شخص ومشروع جمال عبدالناصر، وكتب الكثير عن تعلّق جاهين بشخص عبدالناصر، حتى إنه أصيب بالإحباط والكآبة بعد رحيله المفاجئ والمبكر.

كانت التقارير التي ترفع لجمال عبدالناصر في سنوات حكمه الأولى تضع جاهين في خانة المعارضين اليساريين لنظامه، لكنه بالتأكيد لم يتذكر اسمه حتى قرأ أشعاره المفعمة بالأمل في التجربة الناصرية، ويروي الكتاب أن ناصر سأل محمد حسنين هيكل عمّن يكون كاتب هذه الأشعار، فأجابه بأنه أديب شاب في «روز اليوسف».

بعد حين كان على والد جاهين أن يؤدي القسم أمام رئيس الجمهورية، بعد تعيينه رئيساً للمحكمة العليا في الجيزة، حين صافحه عبدالناصر همس أحد كبار موظفي الرئاسة في أذن الرئيس بأن هذا الرجل هو والد الشاعر صلاح جاهين، فعاد إلى مصافحته.

روى الأب/ القاضي لابنه ما حدث له مع عبدالناصر، قائلاً له: «لقد قدّمتني إلى الكبار قبل أن يقدمني أحد».

واقتنصت منها حقًّا كان مقصورًا على أرستقراطية القصور القديمة.

هو صلاح جاهين الثائر على انتهازية الطبقة الوسطى والهارب من سجونها الذهبية، والمتمرد على أحلامها الضيقة رفض حلم أبيه بأن يكون مثله؛ مستشارًا (رئيس محكمة) وشهدت سنوات الرجولة الأولى في حياة صلاح جاهين صراعات مؤلمة ترك فيها المتمرد بيت العائلة أكثر من مرة بعد قرارات من الأب تمنعه مرة من الاستمرار في التمثيل وتلقي في مرات أخرى بألوانه وفرشاته وأقلامه من النافذة..

إحدى رحلات هروبه كانت في غزة، حيث ذهب يبحث عن عمل هناك يساعده على الاستقلال لم يجده هناك وظل في ضيافة أقاربهٍ حتى عاد مرة أخرى ليبدأ رحلة بحث أخرى، ليجد عملاً بالفعل كمستشار فني في مطبعة بالسعودية، هذا بعد فترة خبرة تعلم فيها الكثير من العمل في مجال الإعلانات بدأها عام ١٩٥٠، إذ كان يرسم ويكتب أبيات زجل لكي تغنى في الإعلان، إحدى هذه الأغنيات لحنها الملحن الشهير أحمد صدقي.

كانت هذه حياة صلاح جاهين سلسلة من الاختبارات الصعبة بداية من اسمه الذي اختاره من بين الاسم الكامل الذي التقطه في إهداء جده الصحفي أحمد حلمي على مصحف أنيق "تشرف بحيازته الغلام محمد صلاح الدين بن بهجت حلمي بن أحمد حلمي بن حسين المهدي بن الحاج عامر المهدي بن السيد الشريف صقر بن جاهين بن المهدي بن محمد المهدي من أهالي مصر المحروسة. وقد ولد محمد صلاح الدين المذكور في منزل جده أحمد، رقم ١٢ شارع جميل باشا بشبرا مصر، الساعة السادسة مساء يوم الخميس الموافق ٥ من شهر شعبان ١٣٤٩ هجرية، ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠ ميلادية. ١٩ كيهك ١٦٧٤ قبطية أنبته الله نباتًا حسنًا وجعله من الصالحين المصلحين" ٢٨ نوفمبر ١٩٣٤ كتبه الفقير لله أحمد حلمي.

كان خطرًا يقلب الأوضاع المستقرة، ويربك كل من حوله حتى أشد محبيه بمفاجآت مثيرة، وعندما كتب عنه فتحي غانم في "آخر ساعة" (١٩٥٥): "هذا الشاعر الصغير في السن لا يزال مجهولاً، لم يقرأ له أحد بيتًا واحدًا من الشعر، ولكنه نشر أخيرًا منذ أيام قليلة لنقرأها ولتترجم إلى العالم أجمع اسمه صلاح جاهين"، قال له محمد حسنين هيكل رئيس تحرير "آخر ساعة" وقتها وبلهجة ساخرة وعيناه ترقبان بمكر، حسب رواية فتحي غانم:

–لماذا تكتب عن شيوعي على صفحات آخر ساعة؟

قال له فتحي غانم:

– من قال له هذا؟

قال باسمًا:

– جمال عبد الناصر!

تمر الأيام ويصبح هذا "الشيوعي" هو مغني (الثورة) والغلاف الحافظ لروحها من تشوهات (الدولة) بل إنه عندما يطلب من هيكل أن يبلغ عبد الناصر أن يهديه صورة له بتوقيعه يشترط الرئيس أن يهديه نسخة موقعة من "الرباعيات"!

الرباعيات" التي كتبها في دوامة ارتباكه بعد اعتقال الشيوعيين في ١٩٥٩، وهي الصدمة التي جعلته ينفجر بأسئلة وجودية تحتج على فجاجة التناقض بين الأحلام والواقع وعلى سوء الفهم الذي جعل من أصدقاء له من الشيوعيين يُتهمون بأنهم ضد الوطنية وها هو رئيس الدولة وزعيم "الثورة" (حركة الضباط في ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢) يطلب الاحتفاظ بقنبلة (المتمرد الدائم) بين كتبه! (المتمرد) الذي يرفع في الصورة حذائه المقطوع محتجًا وساخرًا من الأناقة الزائفة وحين يصرخ أبوه في وجهه "لا بد أن تكون محترمًا أنت ابن المستشار بهجت حلمي"، يرد بثقة غريبة على عمره "غدا سيشير إليك الناس في الشارع ويقولون هذا هو أبو صلاح جاهين"!

كان أقرب في أحلامه إلى جده الذي يحتفظ بصورة موقعة من مصطفى كامل؛ الأسطورة التي ظل صلاح جاهين يسمع حكاياتها في بيت الطفولة الأول ومعها تعلق بالحزب الوطني القديم وصحيفته "اللواء" التي كان جده كاتبًا مشهورًا بها، حكايات أقرب إلى الحواديت التي لا تغادر الذاكرة والوجدان أبدًا، كبرت معه وفي أغانيه للثورة كان طفلاً كبيرًا يعيد صياغة الحوادث القديمة، ورومانسيًّا يرسم صور أول حب على أغلفة رسائله الجديدة إلى حبيبة لا تعيش إلا في خياله.

إنه الخيال الذي تربى على يد أمه؛ التي تركت عملها كمدرسة وتفرغت لكي يكون تلميذها الوحيد علمته أحرف الهجاء ورسمت صور أبطال أسطوريين عاشوا معه في كل مراحل حياته، سمع معها سيد درويش في أسطوانات قريبها الذي كان صديقا للشيخ مغني ثورة ١٩١٩.

ظلت أم صلاح جاهين ؛ حتى رحل صديقة من نوع خاص لابن مشاغب يحمل في قلبه كل هموم العالم لكنه يضحك على العالم بضحكة كبيرة من نفس القلب المتعب!

وفي الرسائل التالية يمكن أن نلمس تلك العلاقة الخاصة بين صلاح وأمه التي تصوغها لغة بسيطة شفافة، لا تحتاج إلى زخارف فخمة أو جمل كليشيهات مفتعلة، والرسائل كُتبت تقريبًا في وقت متقارب كانت ظروف عمل صلاح في فيلم "المتوحشة" تمنعه من زيارة أمه التي تقيم مع شقيقته في مصر الجديدة، كما أن التليفونات التي كانت في السبعينيات مصابة بسكتة دائمة كانت عائقًا إضافيًّا للمسافة التي دفعت صلاح إلى كتابة الرسائل وجعلت أمه تقترح عليه أن يتراسلا عبر الحمام الزاجل، وهو اقتراح طريف يعبر عن خفة روح حتى في العتاب وعن خيال لطيف ينافس أحلام الأطفال..

بستان رسائل صلاح جاهين لأمه، الصفحة الرابعة

الرسالة الأولى

حبيبتي ماما..

أقبلك ألف قبلة بل مليون قبلة وأدعو الله أن تكوني بصحة جيدة، كل سنة وأنتِ طيبة عشان عيدك ولو إنها جاءت متأخرة كتابة (رأفت قال لي إنه بلغك تحياتي يوم ٢١ كما طلبت منه).

أنا بخير ولو أني مشغول جدًا ومواعيد صحياني ملخبطة للغاية. أرجو تبليغ تحياتي وحبي لسامية ولبنى وميريت والجميع، وأن أتمكن قريبًا من المجيء إليك لأنك وحشاني جدًا.. وربنا ينفخ في صورة التليفون علشان أعرف أكلمك كل يوم. علمت من مصطفى أنه متوجه إلى مصر الجديدة فكتبت هذه الرسالة على عجل ليحملها إليك.

وأخيرًا أدعو الله أن يمتعك بالصحة وأن يحفظك لنا خيرًا وبركة وحكمة.. وإلى لقاء.

صلاح

الرسالة الثانية

حبيبتي ماما..

أقبلك وأقبل يديك الكريمتين وأدعو الله أن تكوني بخير ومتمتعة بالصحة أنت ووجدان والدكتور عبد الحميد والدكتور هشام والدكتور خالد والدكتورة أميمة.

أكتب لك بسرعة من حوش الاستوديو حيث نبني حارة في فيلم المتوحشة. وأنا أصل كل يوم الساعة ٨ صباحًا مثل أجدع عامل وأظل حتى ينصرف العمال الساعة ٦ مساء، ثم تصل سعاد ونظل إلى الساعة ١٠ في بروفات على الاستعراض الذي سيصور يوم السبت.

دعواتك الصالحات أن يوفقنا الله في هذا العمل، ويمنع التعطيل ويهدي الجميع ويكفينا شرٍ ولاد الحرام. ويستحسن أن تدعو لنا وجدان أيضًا والدكتور عبد الحميد حتى تأتي النتيجة مضاعفة.. وإلى اللقاء.

صلاح

الرسالة الثالثة

أمي الحبيبة..

أقبل يديك ووجنتيك ألف قبلة. وأقدم إليك الاعتذار ألف مرة على عدم مجيئي لزيارتك. ولولا أني أعلم بقبولك لعذري قبل أن أبديه لحزنت كثيرًا جدًا. التليفونات مصيرها للتصليح. وإلى أن يأخد ربنا بيدها أرى أن نتكاتب كأننا في بلدين منفصلين. بدلاً من فكرة الحمام الزاجل التي أرى أنها مبالغ فيها. أخباري أننا سندخل الاستوديو يوم السبت القادم بالرغم من أن الأحد عيد الأقباط والمخرج ومساعده قبطيان ويليه شم النسيم وهو عطلة ثم عيد العمال، ولا أدري كيف سيتغلب الإنتاج على كل هذا، فإلى أن أنفض يدي من هذا الفيلم (الجملي) الذي لا يريد أن يستوي مع إننا نشتغل فيه أو نشتغل تحته منذ أكثرٍ من عامين. سأحضر وأقضي معك بعض الوقت، وأيضًا ربما تأتي معي سعاد لأنها مشتاقة إلى رؤيتك من كثرة كلامي عنك التي ربما تكون قد جعلتها تحس بأنها تعرفك. صحتي لا بأس بها ولو أني أحس في بعض الأحيان بتوتر عصبي وبتطلع زرابيني ولكني لا ألبث أن أروق وأبقى ميت فل وخمستاشر. أرجو أن تكون صحتك قد تحسنت وأصبحت عادية مرة أخرى.

وأعتقد أنك لو مشيتي على نظام مثل جدي حسن لاستطعت أن تستمتعي بوقتك بعد أن أنهيت خدمتك الجليلة التي جعلت منا جميعًا أناسًا لا بأس بهم.. وآن لك أن تفعلي كل ما كان في نفسك وأنت مشغولة بنا.

تمنياتي لك بالهنا وراحة البال.

صلاح

عن صحيفة اخبار الادب المصرية لشهر آب ١٩٩٩

الأبنودي يرثي صلاح جاهين

الاسم زي الجواهر فى الضلام يلمع..
تسمـع كلامُـه ساعـات تضحـك ساعـات تدمع
شاعر عظيم الهبات..
معنى ومبنى يا خال
يشوف إذا عَتَّمت واتشبَّرت لاحْوال
كإنه شاعر ربابة..
ساكن الموّال
يقول.. وحتى إن ماقالش تحسّ إنه قال
ولا يقول م الكلام إلا اللي راح ينفعْ
والاسم زيَ الجواهر في الضلام يلمعْ
المسألة مش قوافي أد ما هي رؤى
الكون في إيد البصير أصغر من البندقة
وضحكة الفيلسوف متجمعة من شقا
تفتحها تقفل عليك.. مسا دا ولا صباح؟
والصـوت دا وسـط الفـرح زغروتة ولا نواح؟
يا بهجة الدنيا.. يا غنيوة الأفراح
أكلوا تمورك وراضي
لو صابوك بالنقا
والمسألة مش قوافي أد ما هي رؤى
نزل من بطن أمه
بصراخ موزون مقفى
وكإن فنه دمه
وتقيل مع إنه خِفه..
واسمه.. صلاح جاهين

من صغره آخر شقاوة
وله أمور عجيبة
يرسم رسومات نقاوة
ويقول حاجات غريبة
تأليف صلاح جاهين
يتهيألك مكشر
هوّه بيضحك لجّوه
وحتى لو يكركر
الوش هوّه هوّه
ماركة صلاح جاهين
والده- وأنا شفته-
قاضي يزوره ف مكتبه:
أبويا.. دايمًا راضي وأنا نفسى أكتبه..
وأمضي: صلاح جاهين
يرسـم.. يقـرا الشـوارع والخلـق في الحواري
وفى النظر كان بارع للبايع واللي شاري
وارسم يا صلاح جاهين
وإن حَـب الرسمـة تنطـق يرسـم واحـد تخين
تتحير لو تدقق ده سعيد ولا حزين
تلاقيه صلاح جاهين
يرسم يرفع ورقته يبعدها
ويقربها ويسألنا: انبسطتوا؟
كإنه بيجرّبها فينا
صلاح جاهين

عَجَبي

سعد جاسم

" عَجَبي أيا جاهينْ
عَجَبي عليكْ عجبي
كُنْتْ إنْتَ شاعرْ مَصْرْ؟
وألّا إنْتَ شاعرْ كونْ؟
وألّا إنْتَ كُنْتْ نبي ؟
عَجَبي
عَجَبي
عَجَبـي عليـكْ يامَصْر
"

بكائية الى صلاح جاهين

عبد الوهاب البياتي

كانت أعواماً جاحدةً
في ليل شتاء العرب القاسي
كانت أعواماً جوفاء
فيها مُسحت ذاكرةُ الانسان
ومات الشعراء
وامتُهن الفكر
وديست أحلام الفقراء.
فيها سُمِّمَت الآبار
وطفت جيف الكتّاب المأجورين
وصاروا وعاظاً في الصحف الصفراء.
فيها انهزم الثوار
صاروا أيتاماً ورعايا
في ليل شتاء العرب القاسي هذا
كان صلاح
يذوي في صمت ويموت ببطءٍ
ويجرر أذيال الغربة
في دائرة الضوء
ويُخفي خيبته في ضحكة طفلٍ
فاجأه موت النور
وبرد السنوات
فبكى مثل الرجل / الطفل المخذول ومات.

نشرت القصيدة عام ١٩٨٦

صلاح جاهين..شاعر القمر والطين

محمود درويش

هو واحد من معالم مصر. يدل عليها وتدل عليه. نايات البعيد وشقاء الأزقة ودفوف الأعياد. سخرية لا تجرح، وقلب يسير على قدمين.

صلاح جاهين يجلس على ضفة النيل تمثالا من ضوء، يعجن أسطورته من اليومي، ولا يتوقف عن الضحك إلا لينكسر. يوزع نفسه في نفوس كثيرة، وينتشر في كل فن ليعثر على الشعر في اللاشعر. صلاح جاهين يأكل نفسه وينمو في كل ظاهرة، ينمو لينفجر..

وخيط رفيع من ضوء القمر في حقل مفتوح، يعج بالقطن والذرة والبؤساء، هو أحد المشاهد التي يُغدقها علينا هذا الغناء. غناءٌ جديدٌ يحاذي الخبر، كأنه يضع جدول أعمالَ القلب. غناء كان يأخذنا إلى السفوح ونار المعجزة. غناء يحرك الآن فينا حنينيا واضحا إلى ماَ ابتعد في الغموض. غناء يتلمس ما كان فينا من قوة العمل وقوة الأمل. غناء يتطلع إلينا لنعود إليه لنمسك بطرف الغناء السابق.

صلاح جاهين! صلاح جاهين، لا أعرف كيف أستعيد ذلك الفصل الضائع من عمر جميل جرَّنا إلى اليقين. ولا أعرف كيف أجد الكلام الجدير باستعادة كلام تحول فينا إلى مصر، ولا أعرف كيف أمشي في وطن تحول إلى شجن، وكيف أتحمل شجنا تحول إلى وطن.

ومصر في مكانها، والنيل في مصر..

ما فينا من مصر هو الذي يشرّق ويغرّب، هو الذي يقترب ويبتعد. هو الذي ينكسر ويلتئم. ومصر في مكانها وفي تاريخها. وصلاح جاهين هو الذي قال لنا، بطريقة لم يقلها غيره: إن ما فينا من مصر يكفي لنفرح..

فهل استطاع النشيد أن يفرح؟

عرفت صلاح جاهين منذ تعرفت على صواب قلبي الأول، منذ يممت مع أبناء جيلي شطر الصعود إلى أعالي الأمل. ولم يكن في مقدور ولدٍ مثلي أن يُسلم بأنه يتيم الوطن والهوية ما دامت مصرِ ذلك الزمان تقدم للعرب هوية روُحهم، وتقود القوافلَ المشتتةَ إلى شمال البوصلة. عبد النَاصر يصوغ مشروع الوعد الكبير، عبد الحليم حافظ ينشد للعمل والموج والصعود، أم كلثوم تشهر شوقنا للسلاح، وصلاح جاهين يسيِّس حناجر المغنِين، ويؤسس تاريخ الأغنية الجديدة ويحول العملَ إلى ورشة أفراح.

لقد انصهر الوطني في القومي في المشروع التراجيدي الكبير الذي انكمشت على ضفافه لغة الاحتكام، هنا وهناك، إلى مرجعية الخرافة، مرجعية السلالات الأولى الرامية إلى الاغتراب والاستلاب، لتُستبدل بمرجعية واحدة هي الوعي بما يتطلبه الحاضر العربي من استنفار ما فينا من مشترك اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا والمصلحة والخطر. كنا نتأهب، لأول مرة، للدخول في تاريخنا من بوابة الصراع الشامل.. كنا نحلم بالحضور.

لذلك استطاع مطلع النشيد أن يفرح..

صاعدون إلى مغامرة الحرية والجمال، صاعدون إلى مدار الشعر، صاعدون إلى ترويض المستحيل.

أنا اللي بالأمر المحال اغتوى
شفت القمر نطيت لفوق الهوا
طلته ما طلتوش؟ إيه أنا يهمني
وليه؟ مادام بالنشوة قلبي ارتوى..

صلاح جاهين يسير على الطريق الطويل، ونحن نمشي في معارك لا تنتهي "يا أهلا بالمعارك" دون أن يُهمُّنا القطافُ السريع بقدر ما تُهمنا نشوةُ المحاولة في السير. تلك هي لذة الإبداع وتلك هي متعة التضحية. أما حساب الربح والخسارة فلا يدخل في أقاليم المخاطرة الشعرية: هل نقطف القمر؟ أم يخطفنا القدر؟ ليس هذا التردد سؤال القصيدة. المهم هو أن نلتصق بطريق لا بديل عنه سوى هزيمة الروح، وهشاشة الدفاع.

إن محاكمة السير على طريق الحرية بمعايير سلامة الوصول إلى المضمون هو المدخل الفكري، شديد الذكاء والحث، للتراجع عن الهدف وعن الطريق معا، تماما كمحاولة الشهيد على اندفاعه واقتحامه. أليس هذا ما حدث فيما بعد؟ أليس هذا ما أشاع لغة الاعتذار عن كل نقطة دم حاولت أن تستدرج القمر؟ ولكن سؤالنا، ذلك السؤال الساطع الأول، مختلف. إن مهمة الطريق هي أن يواصل طريقه دون مقايضة النتيجة بخوف الحساب، وما على الغناء إلا أن يغني:

ثوار، ولآخر مدى ثوار،
مطرح ما نمشي يفتَّح النوار.
ننهض في كل صباح بحلم جديد.
وطول ما إيد شعب العرب في الإيد،
الثورة قايمة والكفاح دوار.
ثوار، نهزك يا تاريخ تنطلق،
نحكم عليك يا مستحيل تنخلق،
نؤمر رحابك يا مدى تمتلئ،
والخطوة منا تسبق المواعيد..
ولذلك فرح النشيد..

هل يطمح الشاعر إلى أكثر من تحول صوته الفردي إلى صوت شعب، وإلى ختم شخصي على مرحلة؟ لقد وقَّعَ صلاح جاهين على قلوبنا وعلى فصل من عمر جيل الوعود الباهرة، ومضى فجأة بعدما تعرض العمر إلى صدمات. ها هو يمضي، يحمل جسده المثقل بالعسل المر وبارتفاع القمر إلى أعلى وأعلى. ولكن هل يمضي وحده؟

كم نظلم الشعراء لنتماسك! لهذا نقول للصديق الراحل: اذهب وحدك. أما النشيد فهو لنا. لنا نشيدك، فاذهب إلى حيث شئت ما دمنا قد امتلكناك. وأنت صوتنا، وأحد أسمائنا الأولى..

صلاح جاهين الشاعر الذي قال نيابة عنا ما عجزنا عن قوله بالفصحى، هو الشاعر الذي قال لنا ما عجزت عن قوله العامية، الشاعر الذي حل لجمالية الشعر ولفاعليته العقدة الصعبة: وعورة المسافة بين لغة الشعر ولغة الناس وما بينهما من تباين والتحام.

صلاح جاهين، نتطلع الآن إلى غيابه المحمل بما يغيب منا، نتطلع إلى ما يحضر من غياب، فلا ننكسر تماما لأننا نرى قامات الخطى الأولى وهي تهيمن على الظل، ولأن ما تبقى من روح فينا يبحث عما تبقى من قوة النشيد لا لنتذكر فحسب؛ بل لنصد عنا غزوات الاعتذار الرائجة.

لا، لم نخطئ حين انتمينا، بقوة البديهة والوعي معا إلى ما فينا من مصر. ولم نخطئ حين اندفعنا، بدافع الدفاع عن النفس وعن الحلم، وحين استندنا إلى ما فينا من واحد عربي. ولم نخطئ حين وجدنا الطريق في هتاف اللحم البشري الجريح "ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة" ولم نخطئ حين أنشدنا من كل القبور المفتوحة: والله زمان يا سلاحي.. فهل ابتعد النشيد.

ليس تماما، يا صلاح جاهين، لقد التوى قليلا ليلتف على صخور وليأخذ مساره الحاسم. القمر ليس قريبا إلى هذا الحد وليس بعيدا إلى هذه الكآبة، وليس محالا إلى درجة تعيدنا إلى البئر المهجور. سلام سلام، ولا سلام، لأن مصر ليست شاشة أمريكية. فمن يعيدنا إلى مصر؟ ومن يعيد مصر إلى ذاتها من خارجها؟ ذاك سؤال أحمق يقوله موظفو الجامعة العربية لتبرير العجز عن عقد قمة حضيض ولتحضر في غياب. حرب.. حرب، ولا حرب، هل غابت مصر حقا؟ هذا هو سؤال الذين صدقوا النشيد لأنهم صدقوا دمهم. سؤال الناجين من المؤقت الطائفي والإقليمي والقبلي والذاهبين إلى معنى مصر الدائم..

فاذهب يا صلاح جاهين إلى حيث شئت. اترك صباحنا بلا ورد ساخن. فينا من نشيدك ما يكفي لنواصل الغناء لمصر العرب، ولعرب مصر. فينا منك ما يزوِّد الذاكرة بمطلع العمر العنيد. اذهب إلى حيث شئت ولا تصدق أن حزيران هو أقسى الشهور، فسنشهد بعدك على سنين أقسى، طالما أن التدهور لم يبلغ قاع تدهوره، وطالما لم يفرغ ملوك الطوائف، بعد، من تكوين طوائفهم. زمن رديء، قالوا، زمن وغد، فودَّعه بلا ندم. واترك لنا ذاكرة البدايات المؤمنة بقدرة النشيد وقدرة سكان النشيد على إعادة صياغة الواقع الجديد، وعلى استبدال شرعية الفصحى الرسمية، فصحى الكاتب الرسمي وفصحى الحاكم بشرعية الشارع والنيل والطين، بفصحى جديدة تعبِّر عن امتلاء الكلام بشرايين الحياة واستغاثة الروح.

صلاح جاهين، سنتسلح منك بما نشاء من وعود. سنختار من الأشجار أوفرها خضرة. سنأخذ منك ما يجعلنا أقوى، وما يصل فينا ما انقطع من علاقات الفصول. وسنأخذ منك عبرة التطابق بين الأغنية والمغني. لنشهد على براءة جيل من اختلال الشبه بين الواقع والمرآة، وبين الإرادة والأداة، ولنبقى قريبين حتى التلاشي من جوهر الشعر ومن جوهر مصر، وسنواصل النشيد.

• المقدمة التي كتبها الشاعر محمود درويش لكتاب محمد بغدادي « صلاح جاهين.. أمير شعراء العامية « والصادر عن سلسلة كتاب الدوحة.

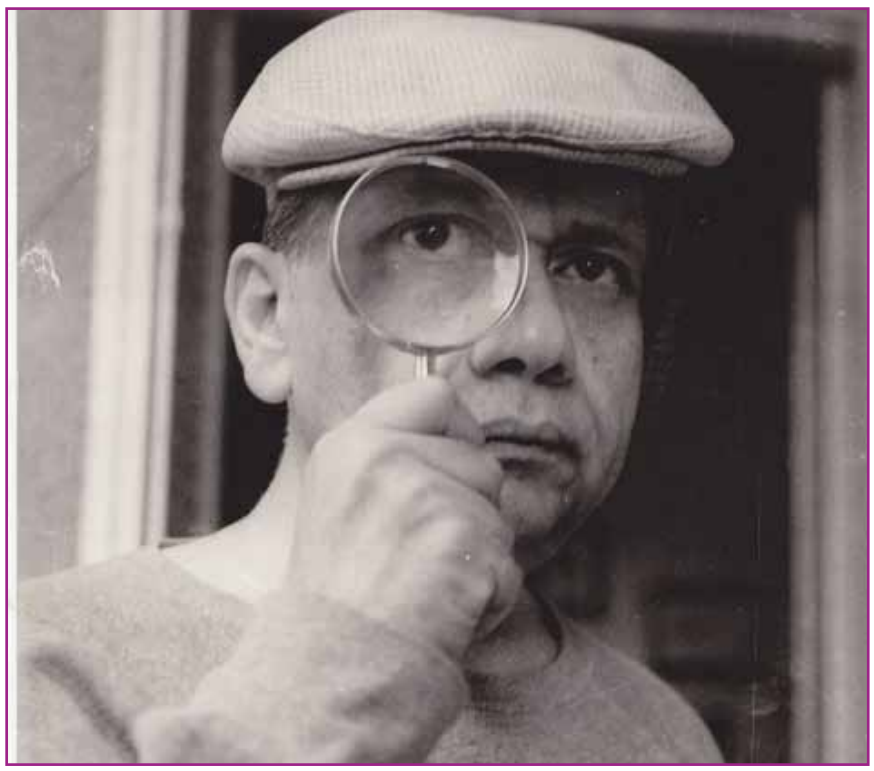

manarat
www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

صلاح جاهين.. أكبر قدر من الوطنية

علي حسين

بنى صلاح جاهين لنفسه اهرامات من القصائد التي تغنت بالثورة والفقراء، يذهب الحكام ويبقى الحكماء وكان صلاح جاهين واحدا من حكماء مصر، يجلس على ناصية الطريق يتامل الناس، يدقق في وجوههم، يسالهم عن احلامهم، يصغي الى امانيهم، حكاياتهم وامالهم، يرسم همومهم وافراحهم، ثم يبدا يدون سيرة هذا الوطن من خلال اشعار تغنت بالفجر البهي القادم على الأفق.

لم تكن في كلماته أية ظلال لافتعال سياسي، لم يكتب جاهين شعارات باردة جوفاء بل استطاع ان يغوص في اعماق الانسان المصرى المتطلع الى عالم أفضل ليستخرج منه بكلمات عامية بسيطة وبليغة، أجمل ما فيه من أغنيات وقصائد راح ينثر بها البهجة والفرح في قلبه المتفائل المحب للحياة فتتحول عبر شاعريته الأصيلة الى أناشيد للفرح والحب

يا عندليب ماتخافش من غنوتك
قول شكوتك واحكي على بلوتك
الغنوه مش حتموتك.
إنماكتم الغنا هو اللي ح يموتك

في العام ١٩٥٥ يصدر صلاح جاهين ديوانه الاول "كلمة سلام" ليضعه في مصاف شعراء العامية الكبار، فيكتب عنه احد النقاد "نحن امام شاعر عمره خمسة الاف عام" فيبدأ منذ ذلك التاريخ بالعمل على بتشكيل الذائقة الوجدانية لجيل الثورة بأكمله، شعراء وفقراء وبسطاء وعمالا وفلاحين وموظفين وعاشقين وحالمين. مترجما مشاعر وأحلام وأفراح ملايين المصريين الى كلمات حية متوثبة مليئة بالدفء والزهو والنشوة.

ولد صلاح جاهين في زمن كان العمالقة فيه يتجولون في شوارع مصر ويجلسون على مقاهيها، طه حسين والعقاد وسلامة موسى و نجيب محفوظ ومحمد عبد الوهاب وام كاثوم واحمد شوقي، فما ان كبر الفتى حتى اصغى اليهم، جاورهم وجاوروه، كان جاهين من جيل أفنى حياته في التفكير والحياة وحب الناس،واحدا ممن اضاءوا دروب مصر اكثر مما اضاءتها مصابيح الشوارع،

عاش وهو يضع اماه ورقة كتب عليها هذه السطور

" أكبر قدر من المصرية
أكبر قدر من البساطة
أكبر قدر من السعادة "

هذه الايام يتذكر المصريون وعبقريّهم الاثير الذي ابدع وادهش ورسم وغنى لوطنه كما لم يغن شاعر من قبل، العبقري الذي يتفق الجميع على ان مكل ما تركه اشعاره، اغنياته، مسرحياته، افلامه، رسومه، تمثل نبلض الشعب المصري

ياعندليب ماتخافش من غنوتك
قول شكوتك واحكى على بلوتك
الغنوه مش حتموتك..... إنما
كتم الغنا هو اللى ح يموتك

كتب صلاح جاهين اكثر من « مائة واحدى عشرة « رباعية، تمثل كل منها خكمة مضيئة، يطالعنا من خلالها وجه الشاعر الذي احب وطنه، ليؤكد لنا ان الاوطان هي كنز الشعر بالنسبة له ، كنز يعود إليه ويغرف منه متى شاء. ولهذا يرى المتابع لتجربة صلاح جاهين الشعرية بان الشاعر يحاول دائما الامساك بلحظة التوحد مع الوطن ، ولا شك ان أي قارئ لدواوين صلاح جاهين المتلاحقة على مدى مسيرته الشعرية سوف يلفت انتباهه على الفور ان الحلم بوطن جميل معافى يقف بديلاً لعالم اليأس الذي احاط به اخر ايام حياته والذي جعله يكتب

أدي اللي كان، وأدي القدر وأدي المصير
نودع الماضي.. وحلمه الكبير
نودع الأفراح... نودع الأشجان
راح إللي راح ومعدش فاضل كتير

اجهضت هزيمة ١٩٦٧ احلام الشاعر، فقرر ان يدير ظهره للحياة ليرحل عام ١٩٨٦